كلمة الدكتورة شادن اليافي

ابنة الفقيد

السلام عليكم

أرفع شكري إلى سيادة الرئيس الدكتور بشار الأسد لمواساته الكريمة، وأشكر نائبيه الوفيين الأستاذ فاروق الشرع والدكتورة نجاح العطار لمشاركتهما آلامَنا. أشكر أيضًا العماد أول, مصطفى طلاس لكرمه وأريحيته، وأشكرالسادة الوزراء والوزراء السابقين وأساتذة الجامعة والأصدقاء وأسرة مجمع اللغة العربية من أعضاء وموظفين، فقد كانت مواساتُهم خيرَ أمل لنا في تجاوز محنتنا الشاقة.

أيها الحفل الكريم

نحن نحتفل معكم بتأبين رجل عظيم، أنتم أسرته الكبيرة من زملاء وأحباب وطلاب ومريدين. ولكن لساني يعجز عن إيجاد كلمات تليق ببلاغته, فقد كانت اللغة العربية كما كان يقول تسري في عروقه وفي عظامه.

لا أقول إن أبي كان نبيًّا أو وليًّا ولكنه كان يتصف بصفات الأولياء والأنبياء. فهو من أحلم الناس وأشجع الناس وأعدلِهم وأكرمهم. كان مرهفَ الإحساس عميقَ التواضع والحنان, لا يزدري فقيرًا لفقره ولا يلوم شخصًا على

جهله, ويأخذ بيد الناس أيًّا كانت صفاتهم. ويحب الآخرين, كل الآخرين مهما خالفوه في الرأي والموقف. يبدأ من يلقاه بالسلام والمصافحة فيواسيه إن كان حزينًا ويشاركه سعادته إن كان سعيدًا، ويخف إلى نجدته إن كان خائفًا ويتعهده إن كان يائسًا.

كان يحرِص على الوضوء وقت الفجر مهما كان الطقس باردًا. ولم يترك صلاةً في موعدها مدى حياته. وما يزال يرن في أذني صوتُه الدافئ وهو يتلو آيةً كان يرددها كثيرًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾ [الكهف: ١٠٧]

لقد زها العالم بأسطورة تدعى عبد الكريم اليافي، وتزين بحبه العملاق لجميع الكائنات. والآن أصبح العالم قفرًا يبابًا ينعيه مع الناعين.

إن الخلود هو لأعمال الإنسان العظيمة وما تتناقله الأجيال من أفكاره وحكمته. هناك قول شائع: «من خلَّف لم يمت» ولكن كثيرًا من العظماء أمثال المعري وبتهوفن وشوبنهاور وليوناردو دافينشي لم يخلفوا أولادًا، إنما بقاؤهم كان في أعمالهم التي خلَّدها الزمان. سيخلد والدي لا لأنه أنجب ولدين، بل لأنه أنشأ أجيالاً من المثقفين، ووضع كتبًا وبحوثًا في الفلسفة والآداب وعلم النفس وعلم الاجتماع والفيزياء، يتناقلها كلُّ مريدي العلمِ والمعرفة. لقد أفنى نفسه في هذه المعارف التي تَنشُد الحقيقة وتتحرى معنى الوجود، وتتبين ُكنهَ الحرية الإنسانية الحق. وأنا التي عَرَفتُه عن كثَب أقول إنه جاوز إنسانيتَه ليتصف بصفات أولياء الله الصالحين. فذكاؤه المتوقد كأنه نفحةٌ

من روح الله، وطيبته وإيمانه وحبه لوطنه وقومه ودينه والإنسانية جمعاء لا مثيل لها.

كان أبي مثالَ الأب المحب الصالح الحنون. منحني وأخي حبًّا عميقًّا غير مشروط, شجعنا منذ صغرنا على التعبير عن أنفسنا في واحة من القبول والاستحسان والآمال العالية. طفنا معه في الأسفار فتعلمنا منه حب جميع الشعوب واحترام سائر الثقافات والمذاهب. كما تعلمنا منه التواضع والصبر والجلد على العمل.

لم تمنعه كثرةُ أشغاله من إعطائنا كثيرًا من وقته واهتمامه. فكان يصطحبنا إلى دروس الموسيقا والرسم والخط ويساعدنا في المشاريع العلمية المدرسية. كم أمضينا من الساعات الممتعة ونحن نشيد مجسمات براكين ونصنع أنواع الموازين والدارات الكهربائية، بل كنا نسترسل أحيانًا في لهو علمي فنصنع قناديل مضيئة من قشور الحمضيات ونؤلِّف أحجيات رياضية تحيِّر الأساتذة. كان يلقننا أشعارًا رائعة للمتنبي والشيرازي وبول إيلوار ولامارتين. وحاول جاهدًا تعليمَنا أسماء النجوم وتمييزَها بعضَها عن بعض ليلاً ولكن عبثًا ... لم نفلح ... أنى لنا أن نلحق بذكائه الخارق وذاكرته العجيبة. لعل أهمَ ما وهبنا والدي هو الحرية, حرية مطلقة لاختيار مسارنا في الحياة.

لا بد لي أن أذكر أن والدي كان مثالاً يحتذى للرجل المتفتح العصري الذي يؤمن أن المرأة عنصر فعال في المجتمع ونِدٌّ له. كان يستشير والدتي في كل أعماله, ويعهَد إليها بمراجعة كتبه وأبحاثه وتنقيحِها. ولم يجد حرجًا في

مساعدة أمي في تنشئتنا، فساند رغبتها في الاستمرار بالعمل خارج المنزل. واضطره ذلك إلى تنمية موهبته في الطبخ. وشغفه الطبخُ كثيرًا فظل طوالَ حياتِهِ يحضر بعض الوجبات الشهية وغير المألوفة!

لعل أبي شعر في السنة الأخيرة بدنو الأجل فكان يردد هذه القصيدة لمولانا جلال الدين الرومي:

أيها العشاق! هذا وقت الرحيل عن العالم

ها هي طبول الرحيل تدق في السماء وتصل إلى مسامع روحي. فتنبّه!

لقد نهض الجمّال وهيأ القافلة وشدّ الرحال, وطلب منا كلَّ ما هو حلال.

فلماذا تظلُّ في غفلة أيها المسافر!

هذه الأصوات التي تحيط بك من خلف وقدام إنما هي أصواتُ الرحيل. وفي كل لحظة من اللحظات تسري نفسٌ ويسري نفَسٌ إلى لا مكان. ومن هذه الشموع المقلوبة ومن هذه الحجب الزرقاء خرجت المخلوقات العجيبة لتجعل ما في الغيب عيانًا.

وقد أصابك نوم ثقيل في دوران هذه الأفلاك.

فيا لوعتا على هذا العمر الضئيل ويا حَذَرا من هذا النوم الثقيل.

ويا قلبي عليك بالحبيب! يا أيها القلب الحبيب سر إلى لقاء الحبيب.

ظل أبي واعيًا ومتقد الفكر حتى النهاية. وفي اليوم الأخير من حياته كنت أقرأ له مقاطع من كتاب الإنسان الكامل لعبد الكريم الجيلي وكان يصحح لي

هفواتي في اللغة العربية.

كثيرًا ما كان والدي يقول: قلوب الأحباب كنز الإنسان. وقد ترك لي بعد وفاته كنزًا من الأحباب والأصدقاء يفوق كل الكنوز. واليوم أينما أذهب أسمع كلمات الحب والحنان تأتيني من كل حدب وصوب ومن كل فئات المجتمع. فكلٌّ ينشِد رسوخَ انتمائه القومي وعلوَّ أفقه الإنساني، واتساع علمه وعمق ثقافته، إلى جانب تواضعه الشديد وشخصيته المحببة البسيطة. وها أنتم تسارعون في هذا الحفل الكريم لتشيدوا بمزاياه وبذكراه الطيبة. ولكن هيهات...قلبي يغوص في الظلام وأنا أدهش كيف لم يحمه حبي الكبير من الموت...

أيام من الحزن المضني أمضيها بعيدة عنك يا أبي

ماذا بقي من عينيك الخضراوين وابتسامتِك المتواضعة؟

ماذا بقي من محادثاتنا حول الصوفية والمعري وبتهوفن؟

ماذا بقي من الضحكات والدُعابات؟

أنىّ لي أن ألمس جبهَتك العريضة وأقبِّلَ يديك الناعمتين مرةً أخرى؟

لقد كنتَ حياتي وحبي وغاية وجودي, أهيمُ اليوم وحيدةً كطيف في الصحراء...

مازلت أنتقي الفاكهة التي تحب... وأحضِّر القهوة كما تحب... وأعتني بصغار الحيوانات وأسقي النباتات كما علمتني

سعادتي كانت افتخارك بي

أعزف الموسيقا فأسمع اسمك يتردد في كل النغمات

مازلت أشم عبيرك عبيرَ الخزامى في كل أرجاء المنزل

لقد أصبحتَ روحًا بلا جسد وأنا غدوتُ جسدًا بلا روح

وإذا جَنَّ الليل, وهدأت العيون, وأنس كل خليلٍ بخليله, أجتلب وجهك الحبيب وأحيي الليل إلى جوارك...